الفصل الرابع

الثـورة البرتقاليـة فـــى أوكـــرانـــيا

استطاعت حركة «أوكرانيتنا» Our Ukraine أن تحقق تحولا ديمقراطيا فى أوكرانيا من خلال ثورة برتقالية شعبية عارمة. هذه الثورة صنعها الأوكرانيون فى الأساس، رغم ما قدم لهم من دعم أمريكى واضح. وقد أحدث التحول البرتقالى فى أوكرانيا موجات من الاستنفار فى العديد من دول العالم شرقا وغربا، خوفا من البديل الديمقراطى الملون، خاصة بعد الثورة الوردية فى جورجيا عام ٢٠٠٣م. لم تكن الأنظمة التى تخشى رياح الديمقراطية تحتمل ثورتين فى غضون عامين، نتج عن كليهما تحول ديمقراطى سلمى. كان من الطبيعى أن تشوه هذا التحول الديمقراطى المهم، تلصق به تهم عديدة أكثرها شيوعا «العمالة» للولايات المتحدة. لم يكن هذا حقيقيا. نعم قدمت واشنطن دعما لإحداث التحول الديمقراطى فى أوكرانيا، لكنها لم تصنعه بيدها. وبينما كان خيار نظام كوتشما الموالى لروسيا إرسال قوات ضمن التحالف الدولى الذى تقوده واشنطن فى العراق، كان خيار يوتشينكو المنتخب ديمقراطيا ـ المدعوم أمريكيا ـ عودة القوات الأوكرانية إلى بلاده. القضية أكثر تعقيدا من اختزالها فى قضية الدعم الأمريكى للثورة البرتقالية.

نعود إلى النموذج الذى طرحه مايكل ماكفول Michael McFaul للموجة الرابعة للتحول الديمقراطى. ويعد ماكفول فى مقدمة الباحثين الذين أولوا اهتماما بالغا بالتحول السياسى فى أوكرانيا فى إطار اهتمامه الأكاديمى بالتحول الديمقراطى فى دول المعسكر الشيوعى سابقا، وله دراسة تفصيلية معمقة عن الثورة البرتقالية فى أوكرانيا بعنوان: «العوامل الداخلية والخارجية فى التحول الديمقراطى عام ٢٠٠٤م فى أوكرانيا ـ Internal and External Factors in Ukraine's 2004 Democratic Breakthrough».

فى هذه الدراسة سعى مايكل ماكفول إلى رصد أهم العوامل التى أدت إلى

إحداث الثورة البرتقالية، موضحا إلى أى حد لعبت العوامل الخارجية دورا محوريا فى إحداث هذا التحول، وهل سبقت العوامل الداخلية؟ أم جاءت إلى جوارها؟ أم أن كليهما تفاعل لإنتاج تحول ديمقراطى سلمى؟

فى ٢٣ يناير عام ٢٠٠٥م تولى ـ رسميا ـ «الرئيس فيكتور يوتشينكو ـ Victor Yushchenko» رئاسة أوكرانيا بعد مرحلة مخاض سياسى عنيف، شهد ثورة برتقالية سلمية، حركها مئات الآلاف من المواطنين بحثا عن الديمقراطية. بدأ المارثون الانتخابى بانتهاء الجولة الثانية من الانتخابات بإضافة نحو مليون صوت إلى مرشح الرئاسة الذى دفع به الرئيس كوتشما لخوض الانتخابات وهو «يانكوفيتش ـ Yanukovych» وذلك فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٤م، لم يصمت مرشح المعارضة على تزوير نتائج الانتخابات، ودعا يوتشينكو مؤيديه للتجمع فى قلب العاصمة كييف. تحت البرد القارص تجمع مئات الآلاف من المواطنين للاحتجاج على تزوير الانتخابات. قررت المحكمة العليا إلغاء نتيجة الانتخابات فى ٣ ديسمبر ٢٠٠٤م، وحددت يوم ٢٦ ديسمبر لإعادة الجولة الثانية من الانتخابات، التى حصل خلالها يوتشينكو على ٥٢٪ من الأصوات، مقابل ٤٤٪ لمرشح النظام القائم، يانكوفيتش. وأيّدت المحكمة العليا صحة نتائج الانتخابات، بعد أن احتج عليها يانكوفيتش، وذلك فى ٢٣ يناير ٢٠٠٥م. حدثت الثورة البرتقالية رغم أن العديد من العواصم الغربية لم تكن تود أو تتوقع حدوث ذلك، كل ما كان يحدوها هو أن تشهد أوكرانيا انتخابات حرة نزيهة. إذن الذى صنع الثورة البرتقالية هم الأوكرانيون أنفسهم، وليس غيرهم، حتى ولو كان هناك من قدّم لهم دعما لوچيستيا وماديا.

ولكن كيف حدث هذا التحول؟ يجيب مايكل ماكفول على ذلك بتقديم نموذجه بمراحله السبع، ولكن عبر تحليل مزدوج تفاعلى يأخذ فى اعتباره دور العوامل الخارجية والداخلية فى آن واحد.

١ـ قيادة سياسية فقدت شعبيتها:

فاز الرئيس كوتشما Kuchma مرتين فى انتخابات رئاسية وُصفت بأنها نزيهة وحرة وفق المعايير المتبعة فى هذه المنطقة عامى ١٩٩٤و١٩٩٩م، وشهد عام ٢٠٠٣م ـ

العام الأخير لحكمه ـ نموا اقتصاديا بلغ ١٢٪، وبالرغم من ذلك تلاشت شعبيته إلى حد بعيد؛ نتيجة تصاعد الفساد، وكشف النقاب عن حوارات مسجلة على شرائط كاسيت بين كوتشما وبعض مساعديه تفيد بضلوعه فى عملية اغتيال الصحفى «چورچى جونجادز ـ Georgy Gongadze». قدّم كوتشما رئيس وزرائه «يانكوڤيتش ـ Yanukovych» لخوض انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠٤م، وهو أمر جعل قطاعًا عريضًا من الرأى العام على اقتناع بأن مرشح النظام القائم لن يفعل شيئا سوى الإبقاء على الوضع الراهن.

فى هذا الخصوص فإن إدارة الرئيس چورچ بوش، فى أعقاب مقتل Gongadze، عمدت إلى إضعاف سلطة الرئيس كوتشما، سواء من خلال عدم دعوته لزيارة الولايات المتحدة، والتقليل من مساحة تواجده دوليا، ووجهت له انتقادات قاسية بشأن مسار التحقيق فى هذه القضية. وعندما قرر كوتشما إرسال قوات أوكرانية ضمن قوات التحالف الدولى فى العراق، تلقى بعض الترحيب من البيت الأبيض، إلا أن مجمل الرسالة التى حرصت عليها الإدارة الأمريكية، والسفارة الأمريكية فى كييڤ هى عدم التعامل بـ«اهتمام زائد» مع كوتشما.

٢ـ اتحاد المعارضة:

على مدار عقد من الزمن كانت المعارضة الأوكرانية فريسة لانقسامات حادة. كان الوجود القوى للحزب الاشتراكى يحول دون الاتفاق مع القوى الليبرالية. يُضاف إلى ذلك عدم تبلور شخصية لها حضور سياسى فى صفوف المعارضة تمتلك القدرة على توحيد صفوف المعارضة خلفها، والحصول على دعم جماهيرى عريض. فى الواقع أسهم كوتشما ذاته فى خلق هذه الشخصية الكاريزمية فى صفوف المعارضة عندما قام بإقالة رئيس وزرائه الناجح «ڤيكتور يوتشينكو ـ Victor Yushchenko» من منصبه عام ٢٠٠١م. حتى ذلك الحين كانت الصورة المأخوذة عن يوتشينكو أنه «رئيس وزراء تكنوقراط ناجح»، لكنه فى عيون الجماهير لم يكن «سياسيّا». هذه الحادثة، وما أعقبها من تشكيل تحالف «أوكرانيتنا ـ Our Ukraine»، والفوز بنحو ٢٥٪ من مقاعد البرلمان فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٢م، كل ذلك أدى إلى أن يصبح يوتشينكو

زعيما محتملا للمعارضة بأسرها. التفت قوى المعارضة خلف يوتشينكو، بما فى ذلك قيادات سياسية أكثر كاريزمية منه مثل: « يوليا تيموشينكو ـ Yulia Tymoshenko »، وقرر زعيم الحزب الاشتراكى «ألكسندر موروز ـ Alexandra Moroz» دعم يوتشينكو فى الجولة الثانية للانتخابات الرئاسية، بعد أن حصل فى الجولة الأولى على ٥,٨٪ فقط من أصوات الناخبين.

أما فيما يتعلق بالدعم الأمريكى لزعيم المعارضة يوتشينكو فى الانتخابات الرئاسية فإنه يحيط به كثير من اللغط. ويقدم بشأنه معلومات خاطئة: إما عن عدم معرفة، أو عن رغبة فى تشويه سياسى متعمد. لم يثبت أن يوتشينكو تلقى دعما ماليا مباشرا من هيئات أمريكية تعنى بنشر الديمقراطية من قبيل IRI و NDI، أو أى منظمة مماثلة تتلقى تمويلا من المعونة الأمريكية USAID. تلقى يوتشينكو دعما ماليا من مهاجرين أوكرانيين يعيشون فى الولايات المتحدة وكندا، فى الوقت الذى تلقى منافسه يانكوفيتش دعما ماليا من روسيا. وقام يوتشينكو بتعيين مديرين للحملة الانتخابية أحدهما روسى والآخر أمريكى، وهو الأمر نفسه الذى فعله منافسه يانكوفيتش الذى استعان بمديرين لحملته الانتخابية أحدهما روسى والآخر أمريكى أيضا. كل ما هنالك أن كلا من IRI وNDI قدما دعما على مدار سنوات لعدد من قيادات المعارضة فى صورة برامج تدريبية لدعم المشاركة السياسية، وإدارة العملية الانتخابية، وإستراتيجيات بناء التحالفات، وعندما تشكل حزب «أوكرانيتنا» واصلت المنظمتان تقديم دعما فى الاتجاه نفسه لأعضاء الحزب. وقد لعبت كلتا المنظمتين أيضا ـ IRI وNDI دورا فى تنظيم رحلة إلى الولايات المتحدة قام بها يوتشينكو ـ مرشح الرئاسة ـ عام ٢٠٠٣م التقى خلالها بالرئيس الأمريكى چورچ بوش، وعدد من أعضاء الكونجرس من بينهم السيناتور الجمهورى ريتشارد لوجار Lugar الذى دفع فى اتجاه رفض الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين لنتائج الجولة الثانية من التصويت فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤م، والتى جرى تزويرها لمصلحة مرشح الرئيس كوتشما ـ أى يانكوفيتش. وفى فبراير ٢٠٠٤م قامت مادلين أولبرايت ـ وزيرة الخارجية الأمريكية فى إدارة بيل كلينتون ـ بزيارة إلى كييف بوصفها رئيسا لمجلس أمناء NDI وهى الزيارة التى سجلت فى أعقابها ثقتها العالية فى مرشح المعارضة يوتشينكو.

٣ـ الإعلان عن تزوير الانتخابات :

العامل الثالث المحورى فى نجاح الثورة البرتقالية فى أوكرانيا هو قدرة المنظمات غير الحكومية على تقديم نتائج دقيقة ومحايدة بشأن التصويت فى الانتخابات مباشرة بعد انتهاء عملية الاقتراع. تأتى فى مقدمة هذه المنظمات «لجنة الناخبين الأوكرانيين ـ Committee of Ukrainian Voters (CUV)» التى قامت بمراقبة كل المراحل التى مرت بها الانتخابات الرئاسية، واستطاعت أن تقوم بعملية حصر مواز لأصوات الناخبين. إلى جانب هذه المنظمة ظهرت منظمات أخرى مثل: «مؤسسة المبادرات الديمقراطية ـ Democratic Initiatives». ولكن تعد لجنة الناخبين الأوكرانيين فى المقدمة؛ نظرا لخبرتها فى هذا المجال التى ناهزت عقدا من الزمن. ومن خلال تنوع أساليب مراقبة الانتخابات ما بين التواجد فى مراكز الاقتراع، ومتابعة عمليات فرز الأصوات، وإجراء ما يُعرف بـ «التصويت الموازى» أمام «مراكز الاقتراع ـ Exit Poll» تمكنت العديد من المنظمات التى قامت بمراقبة الانتخابات بتسجيل حدوث تزوير فى عملية الاقتراع، وهى الشهادات التى عززها المراقبون المحليون والدوليون فى عدد من مراكز التصويت.

وكشف العديد من المحللين أن ارتفاع نسبة التصويت فى الدوائر التى تُعرف بتأييدها لمرشح النظام يانكوفيتش يصعب تحقيقه، كل ذلك دفع اللجنة المركزية للانتخابات برفض اعتماد نتيجة المرحلة الثانية لانتخابات الرئاسة، والتى أعلن فيها فوز يانكوفيتش، فى حين أن كل المؤشرات كانت تفيد بتقدم مرشح المعارضة يوتشينكو بنسبة ٥٢٪ على منافسه يانكوفيتش الذى لم يحصل سوى على ٤٤٪ من جملة أصوات الناخبين. وبعد أن رفضت اللجنة اعتماد نتيجة الانتخابات، أصبح الموضوع فى يد البرلمان الذى رفض هو أيضا اعتماد النتيجة وأرسلها إلى المحكمة العليا التى قررت رسميا فى ٣ ديسمبر ٢٠٠٤م إلغاء نتيجة الانتخابات، والدعوة لإعادة الجولة الثانية من التصويت فى أواخر الشهر نفسه. بالطبع يصعب تصور أن تتصرف اللجنة المركزية للانتخابات أو البرلمان أو المحكمة العليا على هذا النحو لولا وجود مئات الآلاف من المتظاهرين الذين تفيض بهم شوارع كييف يطالبون بإلغاء نتيجة الانتخابات.

فى هذا الخصوص جاء الدعم الأمريكى ذات طبيعة تقنية. فقد قام مثلا NDI بتقديم دعم تقنى للمنظمات التى تراقب الانتخابات، فى مقدمتها CUV وهى المنظمة ذاتها التى تلقت دعما من هيئات غربية أخرى. وحصلت على هذا المنوال العديد من المنظمات التى تصدت لعملية مراقبة الانتخابات تمويلا ودعما من العديد من الهيئات الأمريكية والأوروبية. بالإضافة إلى ذلك قام كل من IRI وNDI بدعم فرق من المراقبين الدوليين لمراقبة الانتخابات. ودعمت هيئة المعونة الأمريكية USAID نحو ألف مراقب دولى. هؤلاء المراقبون لديهم خبرة فى التعامل مع ظاهرة تزوير الانتخابات فى دول أوروبا الشرقية وغيرها، والكثير منهم يتحدث اللغة الروسية. يُضاف إلى ذلك أن NDI و«بيت الحرية ـ Freedom House» تعاونا معا لدعم مشاركة شبكة المنظمات الأوروبية لمراقبة الانتخابات ENEMO وهى تتكون من نحو ١٧ منظمة من دول المعسكر الشيوعى سابقا.

ومن الملاحظ أن الدعم الأمريكى فى هذه المرحلة كان واضحا. فقد قام السيناتور الجمهورى ريتشارد لوجار Lugar رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ بدفع الحكومة الأمريكية والعديد من العواصم الأوروبية إلى رفض اعتماد نتيجة المرحلة الثانية من الانتخابات. وأسهم التصريح الذى أدلى به كولين پاول ــ وزير الخارجية الأمريكى وقتئذ ــ برفض نتائج الانتخابات فى إعطاء قوة دفع حقيقية للمعارضة الأوكرانية بالتحرك تجاه الاحتجاج السلمى على مستوى الشارع.

٤ـ إعلام مستقل:

لعب الإعلام دورا مهما فى تهيئة الجماهير فى أوكرانيا للعديد من مظاهر الثورة البرتقالية، وجعلت الجماهير المطالبة بالديمقراطية فى قلب الأحداث. إذا نظرنا إلى خريطة الإعلام إبان الحملة الانتخابية الرئاسية فى عام ٢٠٠٤م، نجد أن الصحف الأوكرانية والروسية والقنوات التليفزيونية والإذاعية التابعة للنظام الحاكم، يضاف إليها الصحف الخاصة التى تمتلكها عناصر من الرأسمالية المتحالفة مع نظام كوتشما، جميعا كانت تقوم بإبراز مرشح النظام القائم يانكوفيتش على حساب مرشح المعارضة يوتشينكو. هذا الزخم الإعلامى المحيط بالمرشح الرئاسى المدعوم من النظام

قابله «تواضع نسبى» فى التغطية الإعلامية لنشاط مرشح المعارضة. فى الواقع لم تكن أخبار حملة يوتشينكو الانتخابية تجد مساحة سوى فى قناة (٥) التى يمتلكها رجل أعمال معارض، والتى لم تكن تصل لأكثر من ٣٠٪ من السكان، وبعض القنوات الإذاعية الأجنبية مثل: «راديو الحرية ـ Radio of Liberty»، و«هيئة الإذاعة البريطانية ـ BBC»، و«صوت أمريكا ـ Voice of America» ويضاف إلى ذلك بعض صحف المعارضة محدودة الانتشار، وبعض القنوات التليفزيونية الخاصة. المقارنة بين التغطية الإعلامية للمرشحين تسجل إخلالا واضحا لصالح المرشح الحكومى يانكوفيتش. ولكن هناك عوامل أخرى لعبت دورا فى توصيل صوت المعارضة إلى قطاعات عريضة من الجماهير، مثل: المطبوعة الإلكترونية التى أسسها الصحفى Gongadze التى تُعرف باسم «Ukrainska Prav» ومواقع الإنترنت الكثيرة، وهى تمثل عنصر تميز حقيقى للثورة البرتقالية فى أوكرانيا، ولم يحدث أن استخدم الإعلام الإلكترونى على نحو متسع فى التحول الديمقراطى فى صربيا أو جورجيا مثلما حدث فى أوكرانيا. واستخدم كذلك الهاتف المحمول على نطاق عريض من خلال أمواج الرسائل المتتالية التى تلقاها المواطنون، تفضح تزوير الانتخابات وتدعوهم للتظاهر السلمى دفاعا عن الديمقراطية.

من هنا فإنه يمكن القول بأن الثورة البرتقالية فى أوكرانيا استطاعت توظيف ثورة الاتصالات ـ بشكل مكثف، ليس فقط لتصحيح الخلل فى ميزان التغطية الإعلامية لصالح مرشح النظام يانكوفيتش، ولكن أيضا للتواصل اللحظى مع الجماهير، وتعبئتهم للنزول إلى الشارع للاحتجاج السلمى على تزوير الانتخابات. ويلاحظ أن التغطية الإعلامية التى كانت تقوم بها قناة (٥) التليفزيونية، وبعض الصحف المستقلة فى الحملة الانتخابية، وما تلاها من أحداث درامية، شكلت قوة ضغط على الإعلاميين، وبخاصة الصحفيين الذين يعملون فى منافذ إعلامية تخضع لهيمنة النظام لتصحيح مسار التعامل الإعلامى مع الثورة البرتقالية، خاصة مع ازدياد الحشود الجماهيرية فى الشارع لأيام متواصلة.

إذا نظرنا إلى الدور الذى لعبته الهيئات الأمريكية نجد أنها ساندت بقوة الإعلام المستقل فى أوكرانيا، سواء من خلال حزمة من البرامج التدريبية للصحفيين أجريت

عن طريق منظمتى Internews-Ukraine و IREX. وخلال الحملة الانتخابية قامت المنظمة الأولى بمساندة النشاط الإعلامى لقوى المعارضة ؛ وذلك لموازنة هيمنة نظام كوتشما على المقدرات الإعلامية الأساسية. هذا إلى جانب الدعم الذى تلقته المطبوعة الإلكترونية المستقلة Ukrainskaya Pravda من الوقفية الوطنية للديمقراطية NED.

٥ـ تعبئة الجماهير للدفاع عن الديمقراطية :

هناك عدد من العوامل الأساسية التى تقف خلف التعبئة الجماهيرية العريضة تنفيذا للشعار الذى انتشر « احمِ صوتك ـ Protect your Vote » .

أولا : قبل إجراء الانتخابات الرئاسية بشهور استعد قادة حركة « أوكرانيتنا ـ Our Ukraine » لاحتمال تزوير نتائج الانتخابات بإعداد سيناريو واضح ومتكامل لتعبئة الجماهير للنزول إلى الشارع ، وكان هناك ما يشبه الاتفاق فى صفوف الحركة على أنه فى حالة قيام النظام بتزوير الانتخابات ؛ فسوف يجرى دعوة الجماهير للتجمع والتظاهر حتى يجرى إلغاء نتائج الانتخابات. بالطبع تغير السيناريو فى اللحظة الأخيرة ، واختلفت التكتيكات ، ولكن ظلت الخطط الأولية جاهزة للتنفيذ.

ثانيا : قرر قادة حركة أوكرانيتنا دعوة الجماهير للتظاهر بـ « ميدان ـ Maidan » بدلا من التظاهر أمام اللجنة المركزية للانتخابات ؛ نظرا لأن قوات الأمن كانت تحاصر مقر اللجنة. ذهبت الجماهير إلى الميدان الذى وقع عليه الاختيار ، وقام أعضاء البرلمان المنتمون للحركة ـ استنادا بالطبع للحصانة البرلمانية ـ ببناء خشبة مسرح ، وتجهيز الميدان للتظاهر ، وبدأت الشاحنات التى تحمل الأغذية ومستلزمات الإعاشة لنحو مليون شخص تصل إلى ميدان.

ثالثا : قام الشباب المنتمين إلى حركة Pora تعنى « حان الوقت » ـ بتشييد خيمة فى قلب مدينة كييف ، مكانا للالتقاء ورمزا للثورة البرتقالية ، إلى جانب التجمع الجماهيرى الحاشد فى ميدان Maidan. هذه الحركة تلقت تعضيدا من حركات شبابية مماثلة أسهمت فى التحول الديمقراطى فى صربيا وجورجيا.

رابعا : قام زعيم المعارضة يوتشينكو بتوجيه بيان عبر شاشات التليفزيون إلى الجماهير بالتوجه إلى ميدان Maidan للتظاهر ضد تزوير نتائج الانتخابات. الملفت

للنظر، وهو الأمر الذى يصعب تفسيره، هو قيام قنوات التليفزيون الرئيسية ـ التابعة لنظام كوتشما ـ ببث خطاب يوتشينكو. تلا ذلك حملة إعلامية فى العديد من منافذ الإعلام المقروء، والمسموع، والمرئى، والإلكترونى تشجع الجماهير على نزول الشارع، والتظاهر السلمى ضد تزوير الانتخابات.

خامسا: بجانب مستلزمات الإعاشة التى انهالت على ميدان Maidan فإن الثورة البرتقالية تمتعت بدعم عمدة كييف Oleksandr Omelchenko وأعضاء مجلس المدينة، وبدون الدعم اللوچستى من جانب هؤلاء المسئولين المحليين فإن قدرة المعارضة على تنظيم تظاهرة مدنية حاشدة لبضعة أيام كانت ستتأثر بشدة.

سادسا: ساهمت منظمات المجتمع المدنى، والجماعات المتحالفة مع حركة «أوكرانيتنا» فى حشد الجماهير للعصيان المدنى احتجاجا على تزوير نتائج الانتخابات، ولم يكن التنسيق فى هذا الشأن سهلا، لكنه ـ فى كل الأحوال ـ لم يكن متوقعا أن يصل أعداد المتظاهرين إلى ما يزيد على مليون شخص.

سابعا: كانت هناك مظاهر عديدة للتعبير عن الطابع المدنى للتظاهر، منها التزام المتظاهرين بوسائل التعبير السلمى، والسعى للتعامل بلطف شديد مع قوات الشرطة الذين وقفوا لأيام وجها لوجه مع المتظاهرين، منها استخدام النكات الطريفة لتفريغ شحن التوتر التى عادة ما تسود مثل هذه التجمعات، تصدر الفتيات للصفوف الأولى للمتظاهرين حاملين الورد، وهو ما جعل استخدام العنف النظامى فى مواجهة المتظاهرين العزل قرارا «صعبا». وتردد أن زوجات وفتيات كبار القادة العسكريين والأمنيين تصدروا الصفوف الأولى للمتظاهرين، وهو ما جعل اللجوء إلى آلة القمع الأمنى «أكثر صعوبة» على الصعيد الإنسانى.

من يتتبع الدور الأمريكى فى دعم التظاهر السلمى للتنديد بتزوير نتائج الانتخابات يكتشف عدم صحة الرواية التى تقول بأن هناك «رواتب يومية» كانت تصل للمتظاهرين عبر مصادر أمريكية. الأمر الواقعى أن حركة أوكرانيتنا المعارضة، ومنظمات المجتمع المدنى، وحركة Pora الشبابية، تلقوا جميعا عبر مراحل مختلفة ـ دعما من هيئات أمريكية وأوروبية ـ على النحو السالف ذكره. وهو التمويل الذى

أسهم فى بناء القدرات الذاتية لقوى المجتمع المدنى، وعزز من قدرتها على التعبئة الجماهيرية، وإدارة المظاهرات السلمية الحاشدة التى فاضت بها شوارع كييف.

٦ـ انقسام فى صفوف الآلة الأمنية:

أسفرت الاتصالات التى أجريت بين قادة المعارضة من ناحية وكبار ضباط المخابرات إلى حرمان نظام كوتشما من استخدام القمع فى مواجهة المتظاهرين سلميا. هناك عناصر أمنية رفيعة أكدت أنها لن تستخدم السلاح لحسم صراع سياسى طرفيه نظام كوتشما من ناحية ونحو مليون متظاهر من ناحية أخرى. وعندما أصدر كوتشما قرارا لقوات الأمن «الخاص» بالتحرك لسحق المتظاهرين، أكد بعض قادة الجيش بوضوح أن مثل هذا الإجراء لن ينفذ. هذا الانقسام فى صفوف الآلة الأمنية جعل كوتشما يتراجع عن استخدام آلة العنف. ومن المؤكد أن تزايد أعداد المتظاهرين الذى فاق المليون جعل استخدام الآلة الأمنية فى مواجهتهم قرارًا محفوفًا بمخاطرة كبيرة، وهو أمر قد يختلف لو كان المتظاهرون بضع مئات أو حتى آلاف محدودة.

الدور الأمريكى واضح فى تحويل الثورة البرتقالية إلى «احتجاج مدنى سلمى». فقد تلقى نظام كوتشما رسائل محددة من الإدارة الأمريكية ــ عبر مصادر عديدة ــ من أن تزوير الانتخابات «غير مقبول»، جاء ذلك عن طريق مادلين أولبرايت وهنرى كسينجر والسفير الأمريكى فى كييف. وحذرت مصادر عديدة زوج ابنة الرئيس كوتشما، وهو من كبار رجال الأعمال الأثرياء ـ من احتمال تعرض أسرة كوتشما ــ ذاتها للملاحقة، والحصار داخل القارة الأوروبية وخارجها. وعندما وقع التزوير، كانت رسالة واشنطن أكثر وضوحا وهى التحذير من استخدام العنف فى مواجهة المتظاهرين. وهى الرسالة التى حملها إلى كوتشما وسطاء كثيرون منهم خافيير سولانا المنسق الأعلى لشئون الأمن فى الاتحاد الأوروبى، ورئيس پولندا ألكسندر كواسنيوسكى، ورئيس لتوانيا فالداس آدمكوس. وجاءت المكالمة الهاتفية التى أجراها كولين پاول وزير الخارجية الأمريكى ـ التى رفض كوتشما الرد عليها ــ رسالة شديدة الوضوح بأن واشنطن لن تتسامح مع استخدام العنف ضد المتظاهرين.وإن كان من الصعب قياس التأثير الذى أحدثه العامل الخارجى فى الحفاظ على قوة الدفع

الجماهيرى فى شوارع كييف، ولكن القدر المتيقن أن نزول نحو مليون شخص إلى الشارع جعل نظام كوتشما فى وضع حرج، وحرمه من استخدام أدوات القمع التى يجيدها.

٧ـ عوامل مؤسسية:

هناك عدد من العوامل المؤسسية الأساسية التى ينبغى وضعها فى الحسبان عند تناول الثورة البرتقالية فى أوكرانيا، من أهمها أن كلا من البرلمان والمحكمة العليا لم يقعا تحت سيطرة كوتشما، وكانت كلتا المؤسستان تتمتعان بما يشبه «الاستقلال» فى مواجهة النظام. من هنا كان سهلا على كليهما إصدار قرار بإلغاء نتائج الجولة الثانية من الانتخابات، والدعوة إلى إعادتها مرة أخرى. بالطبع يصعب إسقاط دور عامل أساسى جعل كلا من اللجنة المركزية للانتخابات ثم البرلمان ثم المحكمة العليا تصدر قرارات متتابعة بعدم الاعتراف بنتائج الانتخابات المزورة، هو «الجماهير» الهادرة التى أغرقت شوارع كييف، وباتت عنصر ضغط حاسم على القرارات التى تصنع خلف الأبواب المغلقة. من هنا كان من الصعب عدم قبول قرار المحكمة العليا ـ وهى طرف ثالث لا علاقة له بالطرفين المتنازعين على الشرعية ـ بإعادة الجولة الثانية من الانتخابات. ولم يكن نظام كوتشما ـ المحاصر داخليا وخارجيا ـ من القوة بحيث يهدد شرعية السلطة القضائية، أو يتصادم معها، خاصة بعد أن وضح أنه لن يكون فى مقدوره استخدام آلة القمع فى مواجهة المتظاهرين.

أما عن الدور الخارجى فى هذا الشأن، فالبعض يتحدث عن الزيارة التى قام بها رئيس البرلمان الأوكرانى «لاتڤين ـ Lytvyn» إلى واشنطن، قبل موعد إجراء الانتخابات مباشرة. كانت مجمل الرسالة التى تلقاها هى أن يفعل ما يراه صحيحا بصرف النظر عن أى اعتبار آخر، وهو ما يعنى أن له دورا فى الحفاظ على نزاهة الانتخابات. والبعض الآخر يتحدث عن الجذور الديمقراطية لأعضاء المحكمة العليا، واتصال بعضهم ببرامج تدريبية عقدت برعاية أمريكية. كل هذه الاعتبارات يصعب إثباتها، ولكن القدر المتيقن أن الجماهير الهادرة التى ناهزت المليون هى التى صنعت الثورة الديمقراطية فى أوكرانيا، وليس مجرد اتصال هاتفى من واشنطن، أو تحذير حمله شخص لنظام كوتشما القمعى.